الشيخ علي يوسف

٣

{ فصل في بقية الكلام على سياسته المصرية }

بينا ان سياسة الشيخ في المؤيد كانت تدور في أول العهد على ثلاثة أقطاب (١) تأييد سلطة الامير ونفوذه (٢) مقاومة نفوذ الاحتلال الانكليزي (٣) الاعتماد في هذه المقاومة على نفوذ الدولة العثمانية وحقوقها الرسمية في مصر . وكذا على نفوذ فرنسة ومصالحها السياسية فيها ، وانها بعد طول الاختبار وتغير الحوادث طرأ عليها بعض التغيير . ونزيد ذلك بياناً فنقول وان كررنا بعض المعاني :

انه بعد حادثة فشودة علم المترجم أن الاتكال أو الاعتماد على وعود أو عهود دولة أوربية لا يكون الا دون الاتكال على المواعيد العرقوبية ، وانه بعد اختباره السياسة العثمانية بالغوص في اعماق الحوادث التي بينها وبين أوربة ، وبلقاء كبار رجالها في الاستانة ومصر وأوربة ، علم انه لا يتكل عليها في شيء ، وان الذي يبني عمله على الرجاء فيها قاعما يبني على شفا جرف ، اذ لا يؤمن خذلانها له في كل عمل ، فاكتفى من خدمة الدولة فيما يسمونه المسألة المصرية بالمحافظة على حقوقها الرسمية في مصر ، وجعل فرمانها الرسمية لامراء مصر ركن استقلالها الركين ، الذي يصد به بعض ما يخشى من هجمات الاحتلال عليه . وأما فرنسة وسائر دول أوربة فقد علم كما يعلم كل خبير بصير انها دول تجارية تتجر بالامم والشعوب والدول ، وأنها لا تراعي في تجارتها حقا ولا عدلا ، ولا رحمة ولا فضلا ، وانما رأس مالها القوة والحيلة والأثرة ، فلا يقدر أن يستفيد منها ، الا من جعل منفعته وسيلة الى منفعتها ، وهيهات أن يتسنى للأدنى ، أن يستخدم لمنافعه من هو أعلى منه قوة وعلما . وما كل من تنفعه تقدر أن تستخدمه ، وناهيك بدول أوربة ومعارضة بعضها لبعض في سياستها أو مطامعها في بلادنا ، فاذا أراد بعضها أن ينفعنا قليلا لينتفع منا كثيرا ، عارضه في ذلك من يكره لنا هذه المنفعة ويراها عقبة في طريق مطامعه فينا

وكان الفقيد يعلم أيضاً ان شعوب أوربة خير من حكوماتها ، وان فيهم كثيرا من الاحرار ومحبي الحق والخير لكل البشر ، وان رأي الشعب العام له السلطان الأعلى على الحكومات ، فلهذا كان يرى أخيرا أنه ينبغي أن يكون للمصريين صلة

بعض أهل الفضيلة من أحرار الانكليز لعلهم يستعينون بهم على مقاصدهم، وايصال ما يشكون منه بحق من انكليز مصر الى انكليز لندرة . حتى لا تكون الشؤون المصرية محجوبة عن محبي الانصاف، لا يعرفون منها الا ما يكتبه عميد انكلترة في مصر الى ناظر الخارجية في لندرة وبعض مراسلي الجرائد . والعمل بهذا الرأي إما أن ينفع وإما أن لا يضر . ولكن عارضه فيه أحداث الوطنية في جريدة اللواء وما أحدثوه بعد مصطفى كامل من الجرائد كدأبهم وعادتهم ، وقد بينا وجه ذلك عندهم في هذه الترجمة

(الجرائد والاحزاب بمصر)

ونقول ههنا إن السياسة في مصر لا مظهر لها الا الجرائد ، وقد تألفت الاحزاب لأجل الجرائد ومديري سياسة الجرائد ، ولم يستطع حزب من الأحزاب أن يجعل جريدة أكثر رواجا وقبولا من جريدة أخرى عند الرأي العام بمصر . وقد سبق القول بأن الجرائد العربية المؤثرة في الجمهور المصري كانت ثلاثة : الاهرام والمقطم والمؤيد ، وأن التنازع انما كان أولا بين الاهرام والمقطم . ثم كانت الاهرام تشايع المؤيد بعد ظهوره لاتفاقه معها في الميل الى السياسة الفرنسية التي تعد الاهرام هي الركن الأول لها ، ولأن مشايعته على المقطم كانت تعد من آيات صدق الخدمة الوطنية لمصر . ولما انقطع أمل المصريين من فرنسة صارت جريدة الاهرام في المرتبة الثانية بين الجرائد اليومية ، بل كادت تموت من شدة ضعفها، لولا أن تداركها همة بشارة باشا تقلا القوية ومن ساعده على تحريرها من أذكياء الكتاب ، وأعانه على ذلك ثقة جمهور التجار والزراع بأخبارها التجارية . بذلك انتعشت بعد ان سقطت ، وارتفعت بعد ان انخفضت . وحفظت مكانتها بين الجرائد اليومية الكبرى ، فانها تعد رأسا في سياسة خاصة، فهي رأس في الثروة والمباحث العامة . ولا يضاهيها في هذين الامرين الا المقطم. فهما الآن في مقدمة الجرائد المصرية في الثروة ، وسعة الاخبار العامة ، والقدرة على التصرف في الكلام عن الشؤون المصرية. على انهما لم تتألف لهما أحزاب ، وانما تلك كفاءة أصحابهما وتحريرهما ، والجمع بين حسن الادارة ، والبراعة في الكتابة

وقد تألف في مصر ثلاثة أحزاب سياسية حول ثلاث جرائد يومية ، هن أكبر جرائد مسلمي هذا القطر وأوسعها انتشارا ـ المؤيد واللواء والجريدة ـ ولم يكن لواحدة منهن دخل يوازي دخل المقطم والاهرام الا للمؤيد، فقد كان أوسع منهما انتشاراً وعلى مقربة منهما في المال، ولو أتيح للمؤيد مدير مالي يسير بادارته سيرة أصحاب تينك الجريدتين لكان أوسع الجرائد ثروة ، على أن الشيخ رحمه الله عاش به في سعة ورخاء ، كما

يعيش الامراء والكبراء ، حتى تورط في شراء الدور وأراضي البناء ، في ابان اسراف الناس في التغالي بها، فركبته الديون وجاءت سنوّ العسرة المالية فأتت على جميع مافي يده ، وكادت تذهب بالمؤيد نفسه ، لولا أن تداركه بتأسيس شركة مساهمة له، فحالت دون موته ، لادون مرضه ، فقد مرض المؤيد امراضاً أشرفت به على الموت عدة مرار ، وصارت حركة ظهوره كحركة المذبوح أو حركة الاستمرار ، وهو لا يزال محتاجا الى تجديد الحياة ، وانما يكون ذلك بحسن الادارة والنظام ، وجعل التحرير على الوجه الذي بيناه من قبل ، وهو ما به يظل المؤيد صاحب التأثير الاول في كل مايتعلق بمصالح المسلمين في مصر ، ـ وكذا في غيرها ـ ثم بالمصالح المصرية والعثمانية. فاذا قصر المؤيد في هذا الامر الذي لم يكن لولاه أمرا ذا بال ، يحكم عليه الرأي العام الاسلامي بالعدم والزوال ، ويطلب بلسان حاله جريدة تحل محله حتى ينهض بها من يؤهله الاستعداد ، من الشركات أو الافراد

وجملة مانريد الاعتبار به أن المؤيد قد جعله مشربه الاسلامي والمصري فوق جرائد القطر كلها ، بل جعله حاجة طبيعية ، من حاج البلاد المصرية فالاسلامية ، ولقي من المساعدة والاقبال مالم يلق غيره ، ومع هذا كله لم يستطع أن يكون في ثبات الاهرام والمقطم وفي مثل ثروتهما ، ولا في المحافظة على إشعار الجماهير بحاجتهم اليه ، وبانه لابد لهم في الحوادث الطارئة من رأيه ، وقد ألف صاحبه له حزبا سياسيا سماه (حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية) فلم يفده قوة تذكر ، ولا رد عنه غائلة تشن ، وانما كانت قوته المعنوية في هجومه ودفاعه سنان قلم الشيخ علي، وحسن استعماله لأسنة الاقلام التي كانت تساعده ، ومنها ما كان أنفذ من سنانه في بعض الشؤون وأقتل . فلما مرض الشيخ مرض المؤيد ، ولما مات خشي الناس أن يموت كما مات حزبه ، ولكن الشركة المالية تداركت حياته المادية ، وعسى أن توفق لتدارك حياته المعنوية ، فان لم يتم هذا يفقد مسلمو مصر الانتفاع بقوتهم المعنوية، ولا يبقى لهم قائد منهم في حياتهم السياسية والادبية ، ولا مدافع يؤثر صوته في مصالحهم الدينية ، فالشعب جريدة احداث جهال، والجريدة ليست اسلامية المشرب، والاهالي كذلك ، على انها ولدت سقطا كما قال أحد الأدباء . فالجريدة الاسلامية المصرية هي المؤيد ، فاذا مات يعسر وجود خلف له . وانني بهذه الحرية في النصيحة، ربما أثير على نفسي حقدا قديما وعداوة جديدة ، ولا أبالي ذلك في سبيل مصلحة المسلمين ، على أني لست على ثقة من قبولها والله الموفق

وأما اللواء فقد بينا أن منشئه تربى في مدرسة المؤيد السياسية ، فكان تلميذا له ، الا أنه عقه وكفره ، وكان يحسب أنه يبذه أو يكون ناسخاً له، لانه يبالغ ويغلو في كل المقاصد التي صار المؤيد يسلك سبل الاعتدال فيها ، كمدح السياسة الحميدية ، وذم الحكومة المصرية ، ومقاومة الاحتلال ، بالذم والاحتجاج ، وذلك ان الناس كانوا قد ألفوا بعض المبالغة من المؤيد ، فاذا أرجعته عنها الحكمة والخبرة ، يعد عوامهم وشبانهم ذلك من تغيير الخطة ، ومن دأب الاحداث والعوام ، حب الاغراق والغلو في الكلام ، وناهيك بما يتعلق منه بالسياسة والحكام. وقد بذّ اللواء المؤيد في المبالغة بهذه المقاصد ، وانفرد دونه بدعوة مسلمي مصر الى تكوين رابطة جنسية وطنية، لكنها رابطة تنافي إخاء الاسلام ولا ترضي القبط وسائر طوائف النصرانية

صادف اللواء من مساعدة الاستانة ومساعدة بعض أمراء مصر وأغنيائها مالم تصادفه جريدة أخرى . حتى كان يبذل له الذهب بالالوف، وهو على هذا كله لم يتسع انتشاره الا بعد سنين من انشائه ، ثم إنه غلب المؤيد على استمالة أكثر تلاميذ المدارس وكثير من العوام ، وصار المؤيد باعتداله ـ على رضاه أكثر العوام عنه ـ جريدة الخواص .

لم يستطع اللواء ان يصل بكل ذلك الى أن يكون كجريدة الاهرام أو المقطم في ثباتهما وثروتهما ، وقد ألف صاحبه له الحزب الوطني الحديث(١) وألف شركة رأس مالها عشرون ألف جنيه لاجل إصدار لواء أو لواءين آخرين باللغتين الفرنسية والانكليزية . وانما كانت هذه الشركة صورية لاغرض منها الا بذل ذلك المال لمصطفى كامل يتصرف فيه كما يشاء ـ كما يفهم من قانونها ـ وقد فعل . أضاع هذا المال كما أضاع ما سبقه من الاعانات مع كل غلة اللواء ومطبعته في السرف والمخيلة والمضاربات ، وطفق ينشد في اللواء شركاء يشترون سهاما أخرى من الشركة فلم يستجب لرقيته أحد، ولم يلبث مصطفى باشا كامل ان مرض وضاعف ثقل المرض عليه همّ الدين والعوز، وفي أثناء مرضه ألف الحزب الوطني الحديث (١) وكل ذلك لم يغن شيئا . ومات (كما مات صاحب المؤيد بعده) مثقلا بالديون ، فقد تبين ان عليه عشرات الألوف من الجنيهات. وقد حجز الدائنون مطبعة اللواء ، وبيع أثاث زعيم الوطنية في محل رجل رومي يبيع الأثاث بالمزاد ، ثم مات اللواء بعد ان اضطر أصحابه الى استخدام بعض الكتاب من نصارى السوريين لتحريره وقد كان أعدى أعدائهم ، وبعد ان انشق الحزب

(١) أول من ألف حزبا سياسياً بمصر باسم الحزب الوطني حكيمنا السيد جمال الدين الافغاني. والحزب الذي كان يذكره مصطفى كامل في حال صحته لم يكن حزبا مكونا بالفعل

وأنشأ بسعي محمد بك فريد رئيسه جريدة لتكون لسان حاله سماها العلم (بالتحريك) نال رياسة تحريرها بالشيخ عبد العزيز شاويش ، فكانت دون اللواء واحط منه في كل شيء الا الغلو والاسراف ، في الكذب والارجاف ، والطعن في الشعوب والافراد. لذلك اضطرت الحكومة الى الغائها بعد ان حوكم رئيس تحريرها (شاويش) غير مرة ، وحكم عليه بالسجن وسجن .

في أثناء هذه الحوادث كان المتحمسون من رجال الحزب الوطني وآخرون ممن يودون استمالة محبي الرجل من التلاميذ يجمعون المال لنصب تمثال له ، يخلدون به ذكره، ولو راعوا الآداب الاسلامية لحافظوا بهذا المال على جريدة اللواء ، واتقوا لها محررين من الغلاة الادباء ، فان هذا هو الذي يحفظ ذكره كما حفظ الاهرام اسمي سليم قتلا وبشاره تقلا . فما من يوم الا ويقرأ الاهرام ألوف من الناس يرون هذين الاسمين ويتذكرون مؤسسي هذه الجريدة المرتقية . وفي مصر عدة تماثيل لا يخطر اصحابها لاحد على بال حتى عند رؤيتها ماثلة بالشوارع .

وأما (الجريدة) فالعبرة بها أعظم فقد أنشأها جماعة من سروات البلاد أصحاب الثروة والمكانة الاجتماعية ، وحصلوا لها رأس مال عظيم ، ووضعوا لها قبل انشائها قانونا من أدق القوانين ، وأسسوا لها مطبعة من أرقى المطابع ، وجعلوا ادارتها ومطبعتها في قصر من أحسن القصور ، واختاروا لها مديرا من أذكى الكتاب واعلمهم بالسياسة والقوانين واختار هو من المحررين من سبق لهم القرن على الكتابة حتى في إدارة الاهرام وادارة المقتطف والمقطم . وألف أولئك السروات المؤسسون لها حزبا سياسيا يكفلها سموه (حزب الامة) فهي قد ولدت بالغة راشدة فلم تكن كالمؤيد واللواء طفلا يحبو في إدارته رويدا رويدا . ولكنها على كل هذه المزايا لم تستطع ان تجد لها مقعدا ولا موقفا من المكان الفسيح الذي وجده قبلها المؤيد أو اللواء من قلب الرأي العام للمصري ، ولم تستطع ان تنال من حبه بعض ماينال المقطم أو الاهرام، بل كانت تحتاج كل سنة الى إمداد اولئك السروات لها بالمال ، على انها ليست في الحقيقة لسان حالهم ، وسبب ذلك كله ان الروح الذي نفخ في هذه الجريدة لتحيا به ليس إسلاميا ، وانما هو فلسفة خاصة لاتكاد تجاوز دماغ مدير الجريدة وأدمغة بعض أصدقائه من المحامين وغيرهم (الذين هم حزب الجريدة المنوي لا المثلي) الا بتدرج بطيء جدا ، ثم انه لا يرجى أن يسهم وليس من الحكمة ولا مما يبيح الاقتصاد أن يكون له جريدة توقف عليه في مثل هذه البلاد التي لم تستعد لأن تعيش فيها

جريدة أو مجلة خاصة بشيء واحد مما تعم الحاجة اليه كالاقتصاد والزراعة أو الادب، دع الفلسفة بجملتها ، دون مذاهب الافراد فيها فقط

وجملة القول ان الجريدة لا ترمي عن قوس عقيدة مسلمي مصر ، ولا تصلح للتأثير بالرأي العام المصري ولا فيه ، فهي لا تستطيع أن تخدمه كما يجب ، ولا أن تستخدمه كما تحب ، لان روحها غير اسلامي ، فلا هي لسان حال المسلمين ، ولا لسان الذين أسست بأموالهم منهم، وهم لم يستمروا على الانفاق عليها الا لما يشعرون به من الفضاضة عليهم اذا ألغوها وأبطلوها ، ولا يرجى لها بهذا المشرب أن تبلغ شأو المقطم أو الاهرام من نفوس الناس ولا من الرواج والربح

فظهر بما شرحناه ان الاحزاب في مصر لا عمل لها ولا تأثير الا بالجرائد ، وان الجرائد بالرجال الذين يتولون سياستها وادارتها ، وانه لم توجد بمصر جريدة للمسلمين حسنة الادارة والنظام سالمة الا الجريدة في الجملة أو في ضبط الاعمال المالية ـ وان جريدة المؤيد هي الجريدة الاسلامية السياسية التي أوجدتها الحوادث وكفاءة الشيخ علي يوسف في مكانة من الرأي العام الاسلامي يعرفها لها أهل الساسة في أوربة ، ويعدونها لسان حال مسلمي مصر وغير مصر أيضاً . وحذت جريدة اللواء حذوها ، ولم تبلغ شأوها ، لأن صاحب المؤيد كان في السياسة الاسلامية مستقلا ، وصاحب جريدة اللواء كان فيها مقلدا ، وانما كان حظه منها بقدر ما اقتبس من سياسة المؤيد . وكل ما خالف فيه المؤيد كان خطأ في جملته ، ان لم يكن خطأ في كل فروعه وجزئياته ، ولكن الغيرة لا تكون الا بالمخالفة في بعض الشؤون ، فصاحبا المؤيد واللواء هما أوجدا المؤيد واللواء ، وقد كان لسوء تصرفهما المالي دخل عظيم في اضعاف جريدتيهما ، حتى ماتت احداهما بعد موت صاحبها بعد ما أشرفت على الموت المالي في عهده ، ويخشى أن تموت الاخرى مثلها ، ان لم يمن بها أهل الغيرة والبصيرة عناية يراعى فيها ما بيناه في هذه الترجمة مرارا .

فيجب على مسلمي مصر أن يتدبروا هذا النقص العظيم، وأن يتذكروا ان شعبهم المستعد للعلم والادب والتربية السياسية والاقتصادية ، هو الذي جعل الاهرام والمقطم أغنى الجرائد في بلاده ، لان محبيها عرفوا كيف يخاطبونه بحسب استعداده ، وهو قد ساعد المؤيد واللواء ما لم يساعدها ، فيجب على من يخدمه أن يخاطبه بلسان استعداده . وأن يتذكروا ان (مصر) و(الوطن) الجريدتين القبطيتين، تليان في الثروة

والثبات الاهرام والمقطم السوريين . ولولا عصبيتهما القبطية لما كانتا دونهما تأثيرا في نفوس المسلمين . فمن النقص بل من العار على المسلمين أن لا يكون لهم جريدة أو جرائد مثل هذه أو أرقى منها في النظام والثروة ، بله التأثير والحظوة

ان لي أن أفاخر بكفاءة أصحاب المقطم والاهرام ومحرريهما وبراعتهم ، لانهم من أبناء وطني الاول الذي هو وطن المولد والمنشأ . وأود ـ والله ـ أن أفخر بمثل عملهم من أبناء ديني ووطني الثاني الذي هو وطن العمل . ولا يسرني من مثل المقطم والاهرام في مصر الا ما ينفع المصريين ، لان أبناء وطني السوريين ليس لهم مصالح في مصر تنافي مصالح المصريين ، فهم غير محتاجين الى جرائد خاصة لهم من دون المصريين ، لاجل هذا يهمني أمر المؤيد ، ويسرني أن يكون أرقى الجرائد المصرية تحريرا ونظاما وافادة واستفادة ، لان المسلم أجدر بمعرفة حاجة الجمهور المسلم وبيانها والدفاع عنها ، من مثله في علمه وبيانه من غير المسلمين ، وأقدر على التأثير فيه بحمله على الخير أو صرفه عن الشر ، وعلى التأثير به بحمله بحق يدفع به عنه ما يراه ضارا به . وقد رأيت غير واحد من المشتغلين بالعلم وبالسياسة من النصارى يتمنون لو ولدوا مسلمين ، لأجل أن يكونوا أقدر على خدمة وطنهم أو الشرق الاسلامي كله .

وما أطلت الكلام على الجرائد في ترجمة الشيخ علي يوسف الا لأذكر إخواني مسلمي مصر بما أراهم غافلين عنه ، وهو أنه لم توجد لهم جريدة تصح ان تكون لسان حالهم بحق الا المؤيد ، وان الروح الذي كان به المؤيد هو المؤيد يجب ان يبقى له ، ويجب ان يكفل ، وان يكون لهيئة التحرير فيه مع الرئيس الكفؤ ، مراقب موثوق به ، مثل سعد باشا زغلول الذي كان ركنا من أركان تأسيس المؤيد . والا خسر مسلمو مصر خسارة يصعب عليهم الاستعاضة عنها في سنة أو سنين قليلة ، وربما حرموها الاجيال طويلة ، وقد ذكرناهم بما يوجب العبرة من تاريخ أعظم جرائدهم

هذا وان أية جريدة من جرائد المسلمين في مصر يتولى رياسة تحريرها كاتب خبير بمصالح المسلمين غيور عليها ، قادر على الدفاع عنها ، يمكن ان تحل محل المؤيد الاول وأن تكون أكمل منه فيه وأثبت ، ولكن لا يكون ذلك الا بعد ثقة الجمهور المسلم بها ، وهذه الثقة اذا استعادها المؤيد في سنة واحدة ، لا تنالها جريدة جديدة الا بعد سنين كثيرة أو قليلة ، ومن ذا الذي ينفق على جريدة جديدة عدة سنين ، منتظرا طروء الحوادث التي تقنع الرأي العام بانها هي حاجته التي يطلبها لسان حاله واستعداده ؟

(للترجمة بقية)